القرآن والعلم

الدكتور
عبد الستار محمد نوير
المدرس بقسم التفسير والحديث

القرآن والعلم

الدكتور عبد الستار محمد نوير

القرآن الكريم كتاب العلم والهداية الجامع ، إنه المعجزة الفاردة ، لم ينزل قبله مثله لأن البشر لم يكونوا قد بلغوا مستواه ، ومعلوم أنه لن ينزل بعده مثله ، لأن الوحي قد انقطع بموت محمد صلى الله عليه وسلم ولحاقه بالرفيق الأعلى لذا جاء بتمجيد العلم وأهله وما يوصل إليه أو يعين عليه من العقل والفكر ، والقراءة والكتابة ، والقلم ، نرى ذلك واضحاً في كثير من آياته ، قال تعالى :

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[١]

﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾[٢]

وقال تعالى :

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط ﴾[٣]

فانظر كيف بدأ تعالى بنفسه ، وثنى بملائكته ، وثلث بأهل العلم تكريماً لهم ورفعاً لذكرهم . ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[٤]

---

(١) سورة الأعراف : ٥٢ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٩ .

(٣) سورة آل عمران : ١٨ .

(٤) سورة المجادلة : ١١ .

وقال تعالى : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾[٥]

﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ﴾[٦]

ومن البين أن أول ما نزل من القرآن جاء بالتنويه بالعلم والعالم والمعلم وبالقراءة والكتابة ، وبالقلم الذي يستعمل فيها ، قال تعالى :

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[٧]

ولقد حمل القرآن - مع ذلك - حملة كبرى ، على الجهل والخرافة والتقليد الأعمى ، وعلى اتباع الظنون والأوهام ومالا دليل عليه ، وعلى الغفلة والجمود قال تعالى : -

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[٨]

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه أباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[٩]

﴿ وما لهم به من علم أن يتبعون إلا الظن وإن الظن . . لا يغني من الحق شيئاً ﴾[١٠]

ولا تقف ما ليس لك به علم[١١]

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن

(٥) سورة الروم : ٢٨ .
(٦) سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .
(٧) سورة العلق : ١ - ٥ .
(٨) سورة الزمر : ٩ .
(٩) سورة البقرة : ١٧٠ .
(١٠) سورة النجم : ٢٨ .
(١١) سورة الإسراء : ٣٦ .

آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[١٢]

وحسبنا ذلك مما ورد بالقرآن في الإشادة بالعلم ، ومحاربة الجهل بأنواعه وهو شيء كثير ، فقد . . وردت مادة (ع ل م) بمشتقاتها في القرآن أكثر من ثمانمائة مرة . هذا وتمجيد القرآن للعلم ، يتناول علم الدين أساساً ثم كل علم نافع يهدي الناس إلى حق أو يدلهم على خير .

العلم قاعدة كل نشاط إنساني :

إذا تقرر ما تقدم ، فلماذا كانت هذه العناية الكبري بالعلم ؟

إن سر ذلك إنما هو العلاقة الوطيدة بين العلم والجانب الإرادي من وجود الإنسان ، فالعلم هو الأساس لكل نشاط إنساني وحركة إرادية فالمرء لا يعمل ما لم يرد ، ولا يريد ما لم يعلم إذا النفس لا تتجه إلى المجهول المطلق كما يقول المناطقة وعلماء النفس ، يقول الأستاذ أحمد أمين[١٣] :

« قرر علماء النفس أن الفكر في الشيء يسبق العمل به حتمًا ، فالعمل الاختياري إنما يعمل بعد التفكير فيه » .

والعمل الاختياري يتكون من أمور ثلاثة على الترتيب : العلم ، ثم الإرادة ، ثم التنفيذ الفعلي ، يوضح هذه الحقيقة الإمام الغزالي بأسلوب تفصيلي فيقول في موضوع « النية »[١٤] : « اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفه للقلب يكتنفها أمران : علم وعمل العلم يقدمه ، لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه ، لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون إختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة ، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد ، فلا بد من

(١٢) سورة يونس : ٧ ، ٨ .

(١٣) موسوعة أحمد أمين الأدبيه (كتاب الأخلاق) ص ٣٨ مؤسسة منطوره ـ بيروت .

(١٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٥ / ٢٦٩٩ ـ دار الفكر ـ بيروت (طبعه مصورة عن طبعه لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦هـ .

إرادة ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض ، أما في الحال أو في المآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضار المنافي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة ، وجعل لها أسباباً وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ، ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه ، وشهوة باعثة عليه إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ، ولفقد الداعية المحركة إليه ، فخلق الله له الميل والرغبة والإرادة وأعنى به نزوعاً في نفسه إليه ، وتوجهاً في قلبه إليه . ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه مريد تناوله ، عاجز عنه لكونه زمناً فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول .

والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والإعتقاد ، وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له» اهـ .

بهذا يتقرر أن العلم قاعدة لكل عمل إرادي . ويتفرع على هذا الأصل الكبير مايلي :

أن العلم أساس الإيمان ، والعمل الصالح ، وكل عمل دنيوي مثمر ، وإليك البيان :

أولا : العلم أساس الإيمان :

من المعروف أن الإيمان الشرعي هو : « تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه »[١٥] فلا بد أن يتقدم العلم بالرسول وبما جاء به من عند ربه ولو إجمالاً ليتمكن من الإيمان به ، فمن الحقائق المقررة أن الإنسان إنما يعتقد ويذعن لشيء يعلمه ويدركه ويقتنع به ، ولا يتصور أبداً أن يعتقد المرء ما لا يعلمه ولا يدركه أصلاً .

ولذا إشترط البلاغ للمسئولية والعقاب ، قال تعالى : -

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[١٦]

﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[١٧]

يقول الإمام إبن حزم :[١٨] إختلف الناس فيمن لم يبلغه الحكم الوارد من الله تعالى فى الشريعة ، في خاص منها أو في جميعها ، فقالت طائفة : كل أحد مأمور منهي ، ساعة ورود الأمر والنهي إلا أنه معفو عنه ، غير مؤاخذ بما لم يبلغه من الأمر والنهي ، وقالت طائفة : إن الله تعالى لم يأمر قط بشيء من الدين إلا بعد بلوغ الأمر إلى المأمور ، وكذلك النهي ، ولا فرق ، وأما قبل إنتهاء الأمر أو النهي إليه ، فإنه غير مأمور ولا منهى . قال علي[١٩] : وبهذا نقول لقول الله عز وجل : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾[٢٠] ، ولقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾[٢١] .

---

(١٥) فتح الباري للحافظ بن حجر ٤٦/١ دار الفكر - بيروت .

(١٦) سورة الإسراء : ١٥ .

(١٧) سورة النساء : ١٦٥ .

(١٨) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٦٨/١ .

(١٩) هو ابن حزم نفسه .

(٢٠) سورة الأنعام : ١٩ .

(٢١) البقرة : ٢٨٦ .

ثم يقول بعد ذلك في نفس الموضوع بعد أن ساق أدلة أخرى : [٢٢] ﴿ فصح كما أوردنا أنه لا نذارة إلا بعد بلوغ الشريعة إلى المنذر ، وألا يكلف أحد ما ليس في وسعه ، وليس في وسع أحد علم الغيب في أن يعرف شريعة قبل أن تبلغ إليه فصح يقيناً أن من لم تبلغه الشريعة لم يكلفها ﴾ ا هـ .

ولأن العلم أساس الإيمان قدم في الذكر ، وعطف عليه الإيمان في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾[٢٣]

وقد صرح القرآن بأن الإيمان يترتب على العلم في قوله تعالى : ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ﴾[٢٤]

فهذه الثلاثة يتبع بعضها بعضا « العلم » يتبعه « الإيمان » والإيمان يثمر « الإخبات » أي الخضوع[٢٥] والخشوع[٢٦] لله عز وجل .

ثانيا : العلم أساس العمل الصالح :

الدين الإسلامي يتكون من جانبين عظيمين :

إولهما : الإيمان ، وهو الجانب النظري .

ثانيهما : العمل الصالح ، وهو الجانب العملي التنفيذي .

ويراد بالعمل الصالح : الفعل المطابق لشرع الله ، والذي يبتغي به رضوانه وثوابه وحده ، فلا بد فيه من أمرين :

الأول : المطابقة للشرع بأن تكون صورة العمل موافقة لأحكام الشريعة .

الثاني : الإخلاص لله بأن يطلب به رضوان الله وثوابه وحده .

---

(٢٢) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٦٩/١ .

(٢٣) سورة الروم : ٥٦ .

(٢٤) سورة الحج : ٥٤ .

(٢٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبه ص ٢٩٤ ط دار الكتب العلمية .

(٢٦) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصطفاني ص ١٤١ ـ دار الفكر ـ بيروت .

وذلك قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٢٧]

وقوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[٢٨]

ولذا قال الإمام إبن تيمية :[٢٩] العبادة والطاعة والإستقامة ، ولزوم الصراط المستقيم ، ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ، ولها أصلان :

أحدهما : ألا يعبد إلا الله .

الثاني : أن يعبده بما أمر وشرع ، لا بغير ذلك من الأهواء والبدع .

والعمل الصالح بهذا المعنى الواسع يعم كل التكاليف العملية فيشمل : -

= العبادات الأصلية من الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والذكر والدعاء . . . . . .

= والمعاملات بكل أنواعها إذا قصد بها التقرب إلى الله .

= والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجميع مستوياته من النصح القولي إلى الجهاد في سبيل الله .

= كما يشمل أعمال القلوب كالإخلاص والتوكل والصبر .

هذا العمل الصالح لا بد له من العلم ، إذ لا يمكن فيه تحقيق معنى المطابقة للشرع إلا بعد معرفة أحكامه الشرعية ، أن معرفة المكلف بالتشريعات والأحكام العملية التي كلفه الله بها ضرورة شرعية لصحة الأعمال ، وتحقيق معنى الإتباع والطاعة ، فالدين إتباع لا إبتداع ، قال تعالى : -

﴿ وإن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[٣٠]

---

(٢٧) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢٨) سورة البينه : ٥ .

(٢٩) العبودية للإمام ابن تيمية ص ١١٧ دار الكتب العلمية .

(٣٠) سورة الأنعام : ١٥٣ .

﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾[٣١]

ولا يكفي أن يعرف المكلف الأحكام العملية المتعلقة به في ذاتها ليتمكن من مجرد الفعل والأداء ، بل لا بد مع ذلك أن يعرف أن هذا التشريع صادر ممن له سلطان التكليف وحق الطاعة والخضوع ، وهو الله عز وجل ، بهذا يستطيع أن يؤدي ما عليه من أمر ونهي الأداء الصحيح ، على وجه الطاعة والإتباع وبقصد العبادة والزلفي .

هذا ما قرره علماء الأصول ، يقول الشيخ خلاف في « شروط الفعل الذي يصح شرعاً التكليف به »[٣٢] : « أولها : أن يكون معلوماً للمكلف علمًا تاماً حتى يستطيع المكلف القيام به كما طلب منه » .

ثم قال :[٣٣] « وثانيها : أن يكون معلوماً أن التكليف به صادر ممن له سلطان التكليف ، ومن يجب على المكلف إتباع أحكامه ، لأنه بهذا العلم تتجه إرادته إلى إمتثاله » .

أقول : وإذا لم يعرف المسلم أوامر الله على هذا الوجه إنحرف ، وربما تقرب إلى الله بما يغضبه ، وكم يفعل الجهل بأهله ، فإن العلم هو الذي يبين فرض الأعمال من نفلها ، وأصلها من فرعها ، وراجحها من مرجوحها ، وفاضلها من مفضولها ، وصحيحها من فاسدها ، كما يعرفنا بشروطها وأركانها وآدابها وسائر أحكامها ، وفوق ذلك يعرفنا بالله الذي شرع وما يجب له من طاعة وتوقير .

من هذا العرض يتبين أن العلم هو طريق الإيمان الصحيح ، ووسيلة الأعمال الصالحة ، وهو بهذا أصل الدين كله .

---

(٣١) سورة آل عمران : ١٣٢ .

(٣٢) علم أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف ص ـ١٢٨ .

(٣٣) نفس المرجع .

ثالثا : العلم سبيل العمل الدنيوي المثمر :

ليست كل الأعمال المشروعة التي يقوم بها الإنسان تكون غايتها الثواب حتى تكون من قبيل الأعمال الصالحة ، والعبادية ، فهناك كثير من الأعمال المباحة يمارسها لابنية الثواب ، بل بقصد جلب منفعة أو دفع مضرة دنيوية .

والأصل في هذه الأعمال الإباحة ، ولا تكون من الباقيات الصالحات إلا إذا دخلها طلب الرضوان والمثوبة ، وحينئذ يجتمع فيها الأمران ، وتلتقي فيها الصفتان ، فتكون أعمالاً منتجة بحسب طبيعتها وسنة الله فيها ، وتكون أعمالاً صالحة موجبة للحسنات بحسب إخلاص صاحبها ، كما أن هذه الأعمال قد يعرض لها حكم الندب أو الوجوب مثلاً ، لأسباب معينة .

ومهما يكن فلا بد لها من العلم .

ويدخل في هذا النطاق ما يسمى بأعمال الإنتاج وأعمال الخدمات ، كالزراعة والصناعة ، والتجارة ، والطب والهندسة ، والمحاسبة وإدارة الأعمال ، والمحاماة وتدريس العلوم المتعلقة بذلك وتعليمها والتدريب عليها ، ونحو ذلك مما يتعلق بشئون الدنيا وتدبير مصالحها .

هذه الأنشطة والمهن والحرف لها علومها وأصولها الفنية ، ومؤلفاتها التي تزخر بها المكتبات ، كما أن لها مؤسساتها وأجهزتها وآلاتها وسائلها المعينة التي هي الأخرى بحاجة إلى علم وفن .

ولا يمكن أن ينهض شيء من هذا ، ولا أن يثمر إلا على أساس الإحاطة بعلومه وفنونه ، واكتساب الخبرة العملية فيه ، بدون ذلك يفشل قطعاً ويضيع بل أن التفاوت في وفرة الإنتاج ، وجودته ، وفي حسن الخدمة ، ونجاحها يرجع أول ما يرجع إلى التفاوت في درجة تلك الإحاطة العلمية والفنية ودرجة هذه الخبرة المكتسبة .

هذا كله أمر مشاهد في واقع الحياة ، وقد جرت به سنة الله في دنيا الناس ، كما وجهنا القرآن إليه ، يشير إلى ذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السماوات

وما في الأرض جميعاً منه أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٣٤]

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[٣٥]

إن الإمتنان على الإنسان بتسخير الشيء له ، يقتضي أن يحسن الإنسان إستغلاله والإفادة منه ، ولا يتحقق ذلك إلا بالعلم والخبرة .

وبهذا ننتهي إلى أن العلم لا بد منه لعمل الدنيا كما أنه قاعدة الدين وأصله .

... ...

العلم كمال وزينة :

ولا ننسى أن العلم ـ فضلاً عما تقدم ـ هو في ذاته كمال وشرف وزينة ، كما أنه لذة ومتعة ، فهو يطلب لذاته ، كما يطلب لغيره ، وهو في ذلك كالنور أن المرء إذا جن عليه الليل ، واستوحش من ظلام البيت ، فأضاء المصابيح ، فسطع نورها وتلألأ في أرجائه ، شعر بجمال وزينة ، وأنس وبهجة ، فضلاً عن أنه يستطيع أن يطالع كتاباً مثلاً ، ويهتدي إلى مصالحة بسهولة ، وهذا يؤكد صدق المثل المشهور : « العلم نور » .

لذا قال بعضهم : « عليك بالعلم فإنك إن إفتقرت كان لك مالاً ، وإن إستغنيت كان لك جمالاً .

إن الإنسان إنما حاز الشرف والفضل بالعقل والعلم ، ولولا ذلك لكان في الحيوان ما يفضله في سائر قواه .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم .. أدنى إلى شرف من الإنسان

قال الإمام الغزالي :[٣٦] « سئل إبن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد » . ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم ، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله ،

---

(٣٤) سورة الجاثية : ١٣ .

(٣٥) سورة الملك : ١٥ .

(٣٦) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١ /١٣ ـ بتصرف .

وليس ذلك بقوة شخصه ، فإن الجمل أقوى منه ولا بعظمه ، فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته ، فإن السبع أشجع منه . . » .

ولأن العلم كمال كان من صفاته تعالي ، وقد وصف به نفسه في كثير من آيات الكتاب العزيز .

وفي التنبيه على القيمة الذاتية للعلم يقول تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[٣٧] ففي ذلك تنويه على أبلغ وجه بقيمة العلم في ذاته ، وتنبيه للعقل على الفارق الهائل بين العلم والجهل ، فإن ذلك من مدركاته ، فلا يمكن أن يسوى بينهما ، كما لا يمكن أن يسوي بين الظلمات والنور ولا بين الأعمى والبصير ، قال تعالى : ﴿ أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾[٣٨] .

وفي الإحساس بهذا الجمال والكمال العلمي لذة عقلية وروحية سامية لا يعد لها شيء عند العلماء والمفكرين ، وكثيراً ما عبرت عن ذلك أقوالهم وآدابهم يقول الإمام الغزالي[٣٩] : « إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته ، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها ، وذريعة إلى القرب من الله تعالى » .

. . .   .

وسائل العلم ، ومصادره ، وغاياته

لقد رسم لنا القرآن طريق إكتساب العلم ، فبين وسائله ، وحدد مصادره وعين غاياته .

أما وسائله ـ وأعني بها الأجهزة العلمية التي زودنا الله بها ، وخلقها فينا ـ فقد بين أنها ـ فضلاً عن الفطرة الهادية ـ العقل والحواس ، وفي مقدمتها السمع والبصر ، وقد إمتن الله علينا بذلك ، في كتابه في أكثر من موضع ، قال تعالى :

---

(٣٧) سورة الزمر : ٩ .

(٣٨) سورة الرعد : ١٩ .

(٣٩) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١/ ٢١ .

« قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار »[٤٠]

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[٤١]

« وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون »[٤٢]

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون »[٤٣] .

« قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون »[٤٤] .

« ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً »[٤٥]

وكذلك إمتن الله عز وجل علينا بنعمة البيان ، ووسائل التعبير الشفوي والكتابي ، قال تعالى : « خلق الإنسان علمه البيان »[٤٦]، « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين »[٤٧] ، « إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم »[٤٨] .

هذا ، وقد أمرنا باستعمال هذه الأجهزة (وتشغيلها) في طلب الهداية ، والعلم ، والقرآن حافل بالأمر بالعقل والتفكر والنظر . . . ، كقوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »[٤٩] .

---

(٤٠) سورة يونس : ٣١ . .

(٤١) سورة النحل : ٧٨

(٤٢) سورة المؤمنون ٧٨

(٤٣) سورة السجدة ٩.

(٤٤) سورة الملك ٢٣.

(٤٥) سورة الإسراء ٣٦

(٤٦) سورة الرحمن ٣ ، ٤

(٤٧) سورة البلد ٨ ، ٩

(٤٨) سورة العلق ٣ ، ٤

(٤٩) سورة الرعد ٤.

« أو لم يتفكروا ما يصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ، أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء »[٥٠]

كما توعد من عطلها وأهملها بأشد العذاب كما في قوله عز وجل : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرن بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »[٥١] .

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور »[٥٢]

. . . .

مصادر العلم :

وللعلم في نظر القرآن مصدران هما :

= الكون المادي (وهو كتاب الله المنظور) .

= والوحي الإلهي ودستوره القرآن (وهو كتاب الله المسطور) .

أولا : الكون المادي :

ويراد به هذه الدنيا بكل ما فيها من سماء وأرض ، ونجوم وكواكب ومجرات وجبال وبحار وأنهار ، وسائر ما تشتمل عليه من جماد ، ونبات ، وحيوان وإنسان وقوى وطاقات ، وسنن وقوانين .

هذا الكون جعله الله مصدراً يتعلم منه الإنسان كما جعله الدار التي يوجد ويعيش فيها . . فيستطيع أن يستقي منه كثيراً من العلوم والمعارف عن طريق الفكر والنظر والتجربه ومن هنا لزم أن يجعل منه مسرحاً لنظراته ، ومجالاً لفكره وتأملاته ، وبهذا

---

(٥٠) سورة الأعراف ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٥١) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٥٢) سورة الحج ٤٦ .

أمرنا الله جل شأنه بمثل قوله : « قل إنظروا ماذا في السماوات والأرض »[٥٣] .

« أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض »[٥٤]

أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصره وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج »[٥٥]

الغاية من النظر في الكون :

لقد أمرنا بالنظر والبحث في الكون - كما مر آنفاً - لغايتين : أصلية وتابعة .

أولا : الغاية الأصلية هي التعرف على خالق هذا الكون ، وصفات كماله ، وعظمته التي لا يبلغ العقل مداها . والتعرف كذلك أنه لا بد أن يجازي العباد ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ، لأنه عادل لا يظلم ، حكيم لا يعبث ، يدل على ذلك قوله تعالى : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك »[٥٦]

يوضح هذا الدكتور / محمد عبدالله دراز فيقول[٥٧] : « إن ظاهرة التدين تستند في أصلها إلى مبدأين مرتكزين في بداهة العقول ، وهما قانوناً » السببية والغائية .

إن هذين القانونين متى فهما على كمالها إنتهيا إلى أسمى العقائد الدينية : عقيدتي التوحيد والخلود ، وإن عقائد الشرك والوثنية والفناء إنما هي وليدة ضرب من الغفلة أو الكسل العقلي يقف بها في بعض الطريق .

أما قانون السببية فيقرر أن شيئاً من (الممكنات) لا يحدث بنفسه من غير شيء « لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ، » ولا يستقل بأحداث شيء لأنه

---

(٥٣) سورة يونس ١٠١

(٥٤) سورة سبأ ٩.

(٥٥) سورة ق ٦ - ١١.

(٥٦) سورة آل عمران ١٩٠ ، ١٩١.

(٥٧) الدين للدكتور / محمد عبدالله دراز ص ١٠٤

لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو ، كما أن الصفر لا يمكن أن يتولد عنه عدد إيجابي ، فلا بد له في وجوده ، وفي تأثيره من سبب خارجي وهذا السبب الخارجي أن لم يكن موجوداً بنفسه إحتاج إلى غيره ، فلا مفر من الإنتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الأسباب .

أما قانون الغائية فمن موجبه أن كل نظام مركب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث عن غير قصد ، وأن كل قصد لا بد أن يهدف إلى غاية ، وأن هذه الغاية إذا لم تحقق إلا مطلباً جزئياً إضافياً منقطعاً ، تشوفت النفس من ورائها إلى غاية أخرى .. ... حتى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة هي غاية الغايات » ا هـ .

ثانيا : الغاية التابعة هي معرفة طبيعة مخلوقات هذا الكون ، وخواصها وقوانينها والعلاقات بينها ، وسائر ما يمكن معرفته منها ، حتى نتمكن من استغلالها واستثمارها ، والإفادة منها على خير وجه ، في شئوننا وتطوير حياتنا وهذا أمر يقتضيه تسخير هذه المخلوقات للإنسان ، وهو ما حفل به القرآن ، قال تعالى : « وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[٥٨]

« الله الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وأتاكم من كل ما سألتموه وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .[٥٩] » .

وهذا يفرض على المسلمين أن يكونوا أهل السبق في مجال العلوم الكونية وما يتبعها من الإختراع والإبداع .

---

(٥٨) الجاثية ١٣

(٥٩) سورة إبراهيم ٣٢ ـ ٣٤

ثانيا : الوحي الإلهي ودستوره القرآن ، وهذا هو المصدر الأكبر والأعظم ذلك أنه يهدي إلى النظر في الكون كما تقدم ، ويزيد على هذا أن يعطينا أنواعاً أخرى من العلم والهداية ، لا يجدها العقل في ماديات هذا الخلق ولا تدله عليها فمن ذلك :

أولا ـ تفسير هذا الكون نفسه فيعرفنا مبدأ وجوده ، ونهايته ، والغاية التي من أجلها خلق . نعم يستطيع العقل أن يصل ـ إذا إستقام تفكيره ـ إلى إثبات الخالق ، وإثبات الجزاء ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك على وجه صحيح تفاصيل الكمال الإلهي والصفات العليا ، ولا أن يعرف تفاصيل الجزاء إلا من الوحي ، فضلاً عن أن الغاية والمهمة التي من أجلها خلق الكون وخلق الإنسان لا يمكن أن تعرف إلا من الخالق عن طريق وحيه .

ولا ننسى أن قصص السابقين وأنباء المرسلين ، وأحداث الصراع بينهم وبين الطغاة والمفسدين إنما تعرف من نفس الطريق .

ثانيا : يعرفنا بالعالم الغيبي ، والكون غير المنظور من العرش والكرسي واللوح والقلم ، والملأ الأعلى والملائكة المقربين ، وكذا بالجن وصفاتهم .

ثالثا : يعرفنا بالدار الأخرة ـ وهي كون آخر ـ وبما فيها من بعث وحشر وصحف وموازين وحساب وجنة ونار .

وكل ما ذكر يدخل في نطاق الإيمان .

وفضلاً عن كل ذلك يعطينا القرآن أصول المنهج والشريعة والقوانين الكاملة التي نسير عليها عملياً في الحياة ، وهذه لا يمكن للعقل أن يستمدها من الكون وما فيه ومن فيه « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »[٦٠]

. . . .

هذا ، وقد أمرنا بتلاوة القرآن وتدبره والإستمداد منه ، باعتباره المصدر الأكبر للعلم والتوجيه قال تعالى : ـ

---

(٦٠) سورة الإسراء ٩

« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور »[٦١] .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب إقفالها »[٦٢]

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم »[٦٣]

الغاية من تدبر القرآن والإستمداد منه :

= أن نقف ـ بقدر الإمكان ـ على أسرار إحكامه وإعجازه ، وأن نعلم أنه نزل من عند الله كما قال تعالى« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً .[٦٤]

« قل لئن إجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[٦٥] .

= وأن نعلم أن ما جاء به هو الحق كل الحق والخير كل الخير ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا خير في غيره ولا صلاح في سواه كما قال تعالى :

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »[٦٦] .

« ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون »[٦٧] .

= والغاية من وراء ذلك كله هي أن نؤمن به ، ونعمل بما فيه ، ولا نرضى سواه إماماً ، ولا لغيره أحكاماً ، قال تعالى :

« وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله

---

(٦١) سورة فاطر ٢٩

(٦٢) سورة محمد ٢٤

(٦٣) سورة المائدة ١٦

(٦٤) سورة النساء ٨٢

(٦٥) سورة الإسراء ٨٨

(٦٦) سورة الإسراء ٩

(٦٧) سورة الأعراف ٥٢

ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[٦٨] .

العلم والظن ومجال كل منهما

معنى العلم :

العلم هو اليقين وهو الأصل[١] ، ويقوم مقامه الظن الغالب في أكثر الأحيان وسأتناول كلاً منهما ، وأبين متى يؤخذ به ، ويعتمد عليه .

(١) ٦هنا أمران لا بد من بيانهما :

الأول : إن للعلماء إتجاهين في تحديد مضمون العلم : فمنهم من يرى أن العلم يشمل اليقين وغالب الظن ، لأن الله تعالى سماه علما في نحو قوله : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً (سورة النور : ٣٣) .

وممن يرى هذا الإمام البيضاوي ، وقد ذكره في تفسيره في تأويل قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » (سورة الإسراء : ٣٦) .

وكذلك العلامة الألوسي ، وقد أثبته في تفسيره ، في تأويل الآية نفسها . .

ومن العلماء من يرى أن العلم هو اليقين فحسب ، وحجته أن الله تعالى قد أثبت أن العلم غير الظن كما في قوله : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون إلا الظن ﴾ (الإنعام : ١٤٨) . ﴿ وما لهم به من علم أن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ (النجم : ٢٨) .

وممن يرى هذا الإمام الفخر الرازي حيث يقول : « يصح أن يقال هذا مظنون وغير معلوم ، وهذا معلوم وغير مظنون ، وذلك يدل على حصول المغايرة ، ثم الذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿ قل هل عندكم من علم

(٦٨) سورة الأنعام ١٥٣

فتخرجوه لنا أن تتبعون إلا الظن ﴾ . نفى العلم وإثبات الظن ، وذلك يدل على حصول المغايرة(التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠ / ٢٠٩ ط ٢ دار الكتب العلمية طهران) .

ومنهم الإمام الغزالي الذي يقول : « العلم عبارة عن أمر جزم لا تردد فيه ولا تجويز » (المستصفى من علم الأصول للإمام الغزالي ص ٣٦ مكتبة الجندي ـ القاهرة) .

ومنهم شهاب الدين الخفاجي الذي علق على رأي البيضاوي المشار إليه بقوله : « ظاهره أن الظن يسمى علمًا حقيقة ، وهو مخالف للمشهور » (حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٦ / ٣١ دار صادر) .

وقد جاء في تفسير القرطبي أن غالب الظنِ قد يسمى علمًا إتساعاً (تفسير القرطبي ١٠ / ٢٥٨ دار إحياء التراث العربي) ومعنى هذا أن الظن قد يسمى علمًا على سبيل المجاز والتوسع في اللفظ لا على سبيل الحقيقة .

فكون العلم هو اليقين لا غير هو الرأي المشهور ، والذي يبدو رجحانه .

وبناء على هذا فتسمية الظن علمًا ، ليس لأنه من قبيل العلم حقيقة ، بل لأنه يقوم مقام العلم اليقيني عند غيابه والعجز عنه فهو إطلاق مجازى .

الثاني : إن تعريف العلم فيه مذهبان للعلماء : الفريق الأول يرى أن العلم لا يعرف إما لشدة ظهوره وعدم الحاجة إلى تعريفه ، وإما لصعوبة هذا التعريف ، ولذا قيل « هو مستغن عن التعريف » (التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ص ٨٢ الدار التونسية للنشر) .

وقال الحافظ بن حجر : « وقد أنكر إبن العربي في شرح الترمذي على من تصدي لتعريف العلم ، وقال : هو أبين من أن يبين ، قلت وهذه طريقة الغزالي وشيخه الإمام أن العلم لا يحد لوضوحه أو لعسره » .

مراتب العلم :

العلم اليقيني يتفاوت ، وهو ثلاث مراتب كما جاء بالقرآن وهي بتعبيره ـ وفي ترتيب تصاعدي ـ : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

قال تعالى : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين(٦٩) ﴾

﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾(٧٠) ، ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾(٧١)

= (فتح الباري للحافظ بن حجر ١ / ١٤١) . ورأى الإمام الغزالي في أن العلم لا يحد يوجد بكتابه (المستصفى ص ٣٥ ـ مكتبة الجندي) .

والإمام شيخ الغزالي هو إمام الحرمين أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني . ورأى إمام الحرمين في أن العلم لا يحد ، يوجد بكتابه (البرهان في أصول الفقه) ٠١ / ١١٩ وهو مخطوط نشر لأول مرة ، حققه وقدم له الزميل الدكتور / عبدالعظيم الديب .

الفريق الثاني : يرى أن العلم يعرف ، وهؤلاء ذكروا له تعاريف كثيرة ، ذكر منها صاحب كشف الظنون خمسة عشر تعريفاً تعرض لمعظمها بالنقد (أنظر كشف الظنون لحاجي خليفة ح ١ المقدمة في أحوال العلوم نهر ٣ ، ٤) .

وقد قال الشيخ صالح شرف : « للعلم تعاريف كثيرة أنهاها بعضهم إلى العشرين ، وكان أكثرها منتقداً » (مذكرات التوحيد لكلية أصول الدين للشيخ صالح شرف الأستاذ بالكلية ، مقرر السنة الأولى ص ٣٠)

ولعل أمثل هذه التعريفات هو أن العلم « صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت هي به » .

---

(٦٩) سورة التكاثر : ٥ ـ ٧

(٧٠) سورة الواقعة : ٩٥ .

(٧١) سورة الحاقة : ٥١ .

المرتبة الأولى :

علم اليقين ، ويراد به العلم اليقيني الحاصل من الدلائل القطعية كالبرهان العقلي ، والخبر المتواتر . . . كعلمنا الأن بالجنة فإنه يقين حاصل من خبر الصادق المعصوم ﷺ .

المرتبة الثانية :

وهي أقوى ـ عينِ اليقين ، ويراد بها العلم الحاصل من المشاهدة كعلمنا بالجنة بعد مشاهدتها ومعاينتها يوم القيامة قبل دخولهاإن شاء الله .

المرتبة الثالثة :

وهي العليا ـ حق اليقين ، ويراد به العلم الحاصل من الذوق والملابسة وذلك كعلمنا بالجنة بعد دخولها والتنعم بما فيها نسأله تعالى أن يجعلنا من أهلها وأن يعيذنا من النار .

جاء بتفسير الألوسي في اليقين ومراتبه[٧٢] : « واليقين في اللغة على ما قال السيد السند العلم الذي لا شك فيه ، وفي الإصطلاح : إعتقاد الشيء إنه كذا ، مع إعتقاد أنه لا يمكن الا كذا اعتقاداً مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال .

وقال الراغب : اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وإخواتها يقال علم

---

(٧٢) تفسير العلامة الألوسي ٣٠ / ٢٢٥

وقد زكاه ، وبين معناه ـ بالمرجع نفسه ـ فقال : « قال العلامة الشريف : وهو أحسن ما قيل في الكشف عن ماهية العلم . ومعناه أنه صفة يكشف بها لمن قامت به ما من شأنه أن يذكر إنكشافاً تاماً لا اشتباه فيه » ا هـ .

والتعريف بهذا المعنى يفيد أن العلم هو اليقين فحسب ، لأن هذا الانكشاف التام والظهور الكامل إنما هو شأن اليقين . وهذا التعريف يشمل كل معلوم سواء كان موجوداً أو معدوماً ، لأن كلًا منهما (مذكور) أو « من شأنه أن يذكر »وبالله التوفيق .

اليقين ، ولا يقال معرفة يقين ، وهو سكون النفس مع ثبات الفهم ، وفسر السيد اليقين بما سمعت ، ونقل عن أهل الحقيقة عدة تفسيرات فيه .

وعلم اليقين بما أعطاه الدليل من إدراك الشيء على ما هو عليه ، وعين اليقين بما أعطاه المشاهدة والكشف ، وجعل وراء ذلك حق اليقين ، وقال على سبيل التمثيل : علم كل عاقل بالموت علم اليقين ، وإذا عاين الملائكة عليهم السلام فهو عين اليقين ، وإذا ذاق الموت فهو حق اليقين » ا هـ .

وقال إبن القيم[٧٣] : « فالمراتب ثلاث : علم يقين يحصل عن الخبر ، ثم تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر حتى يصير العلم به عين يقين ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين ، فعلمنا بالجنة والنار الأن علم يقين فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوهما عياناً ، كان ذلك عين يقين ، كما قال تعالى : « لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين » ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار فذلك حق اليقين » اهـ .

ومما يؤكد أن اليقين يتفاضل كما تقدم أن بعض الأنبياء مع إيمانهم بالله وبالنشأة الأخرة ويقينهم بذلك بخبر الله وآياته طلبوا يقين المشاهدة رغبة في الترقي ، وطمعاً في المزيد من العلم والإيمان ، فموسى عليه السلام طلب رؤية الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ﴾[٧٤] ، وإبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام طلب رؤية إحياء الموتى ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾[٧٥]

قال البيضاوي في معناها :[٧٦] « أي بلى آمنت ، ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بمضامة العيان إلى الوحي والإستدلال » .

(٧٣) مدارج السالكين لابن القيم ١ / ٤٧٢ .
(٧٤) الأعراف : ١٤٣
(٧٥) البقرة : ٢٦٠
(٧٦) تفسير البيضاوي ص ٦٠

وقال الزمخشري[٧٧] : « معناه بلى آمنت » ولكن ليطمئن قلبي ليزيد سكوناً وطمأنينة بمضامه علم الضرورة علم الإستدلال ، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين » .

ويعبر ابن القيم عن هذا بقوله[٧٨] : « يطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر إلى عين اليقين بالشهود ، كما طلب إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه إذ قال : رب أرني كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » فطلب إبراهيم أن يكون اليقين عياناً ، والمعلوم مشاهداً » .

ويلاحظ أن مرتبة « عين اليقين » إجتمع فيها علم الدليل ، وعلم المشاهدة كلاهما كما يفهم من الأمثلة السالفة ، فلا يلزم بالضرورة أن يكون علم المشاهدة الحسية وحده أقوى من العلم الناشيء عن البرهان العقلي أو خبر المعصوم ﷺ .

الاعتماد على اليقين ومجاله :

واليقين ما دام تحصيله ممكناً يلزم الأخذ به والإعتماد عليه ولا يجوز العدول عنه إلى الظنون والأوهام ، فإن اليقين هو الأصل الذي يصلح به حال الإنسان ، فمن إعتمد عليه يكون قد إستوثق لنفسه ، وبنى أمره على أساس راسخ لا يتطرق إليه الخلل فضلاً عن التصدع والإنهيار ، بخلاف من ركن إلى الظنون ، واستغنى بها عن العلم الحق ، فضلاً عما في هذا من سوء الإختيار ، وقلب الأوضاع ، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير .

وكثيراً ماذم القرآن من يفعل هذا ، وأرشد إلى لزوم التعويل على العلم ، قال تعالى : ﴿ وما لهم به من علم أن يتبعون إلا الظن وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾[٧٩] .

﴿ وأن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله أن يتبعون إلا الظن وإن

(٧٧) الكشاف للزمخشري ١ / ٣٩١ .

(٧٨) مدارج السالكين لابن القيم ١ / ٤٧١ .

(٧٩) النجم : ٢٨ .

هم إلا يخرصون ﴾[٨٠]

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾[٨١]

قال فيها الألوسي[٨٢] : « أي لا تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً ، ويندرج في ذلك أمور ، وكل من المفسرين إقتصر على شيء فقيل المراد نهي المشركين عن القول في الإلهيات والنبوات تقليداً للأسلاف واتباعاً للهوى وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن الحنفية أن المراد النهي عن شهادة الزور ، وقيل المراد النهي عن القذف ورمي المحصنين والمحصنات ، ومن ذلك قول الكميت :

ولا أرمي البرى بغير ذنب   ولا أقفوا الحواصن إن رمينا

وروى البيهقي في شعب الإيمان ، وأبو نعيم في الحلية من حديث معاذ ابن أنس : « من قفا مؤمناً بما ليس فيه ـ يريد شينة به ـ حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » ، وقيل المراد النهي عن الكذب ، أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال في الآية : لا تقل سمعت ولم تسمع ، ورأيت ولم تر[٨٣] واختار الإمام[٨٤] العموم ، قال[٨٥] : « إن اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقييد » اهـ

هذا ، وقد أكدت السنة إرشاد القرآن في الإعتماد على اليقين ، قال ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[٨٦]

---

(٨٠) الأنعام : ١١٦

(٨١) الإسراء : ٣٦

(٨٢) تفسير الألوسي : ١٥ / ٧٣.

(٨٣) هذا بعض قول قتادة ، وبقيته : « وعلمت ولم تعلم ، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله » تفسير ابن كثير ٣ / ٣٩.

(٨٤) يريد بالإمام الفخرالرازي ـ التفسير والمفسرون . د . الذهبي ١ / ٣٥٦.

(٨٥) هذه العبارة بالتفسير الكبير للفخرالرازي ٢٠ / ٢٠٨.

(٨٦) صححه الحافظ السيوطي ، وقال رواه أحمد في مسنده عن أنس ، والنسائي عن الحسن بن علي ، والطبراني في الكبير عن وابصة ابن معبد والخطيب في التاريخ عن ابن عمر ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير للمحدث عبد الرءوف المناوي ٣ / ٥٢٨.

فعلى المرء ـ إذن ـ أن يأخذ ما استطاع باليقين في كل أموره الدينية والدنيوية ما دق منها وما جل ، فلو أوى ـ مثلاً ـ إلى مضجعه ، وارتاب أنه أغلق بابه أو أطفأ موقده ، فلا ينبغي أن يغمض عينيه حتى يزيل الريبة ، ويتأكد أنه قد فعل ، وهكذا . ثم هو يطلب في المسائل العلمية المقدور فيها عليه ويتأكد في الأخبار ، وفي الشهادات ، وفي العقائد بصفة خاصة فقد فرض الله علينا فيها اليقين فلا يقبل شرعاً غيره ، وقد ذم الله الكافرين ونعى عليهم أنهم يأخذون في شأن العقيدة بالظن والتخمين . كما مر في الآيات آنفاً ، كما أنه تعالى أمر المؤمنين أن يقيموا إيمانهم على اليقين ، وعدم الإرتياب قال تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾[٨٧] ﴿ إنما المؤمنون الذين أمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾[٨٨]

قال البيضاوي في تفسيرها[٨٩] : « ثم » للإشعار بأن إشتراط عدم الإرتياب في إعتبار الإيمان ليس حال الإيمان فقط بل فيه وفيما يستقبل » .

وقال الزمخشري[٩٠] : « فإن قلت ما معنى « ثم » ههنا وهي للتراخي ، وعدم الإرتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان ، لأنه وصف فيه ، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب ؟ قلت : الجواب على طريقين :

أحدهما : إن من وجد منه الإيمان ربما إعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر فشككه ، وقذف في قلبه ما يثلم يقينه ، أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمر على ذلك راكباً رأسه لا يطلب له مخرجاً ، فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات ، ونظيره قوله : ﴿ ثم إستقاموا ﴾[٩١]

والثاني : إن الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان ، أفرد بالذكر بعد

---

(٨٧) البقرة : ٤

(٨٨) الحجرات : ١٥ .

(٨٩) تفسير البيضاوي ص ٦٨٥ .

(٩٠) تفسير الكشاف للزمخشري ٣ / ٥٧١ .

(٩١) « أن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » ـ فصلت : ٣٠ ، والإحقاف : ١٣ .

تقديم الإيمان تنبيهاً على مكانه ، وعطف على الإيمان ، بكلمة التراخي أشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضاً جديداً اهـ .

وفي تقرير هذه المسألة قال الألوسي في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾[٩٢] قال[٩٣] : ﴿ وإن الظن فيما يتعلق بالله تعالى لا يغني من الحق شيئاً ، ولا يكفي هنا إلا العلم ، وإني لهم به ﴾ .

وقال رحمه الله في معنى قوله تعالى[٩٤] : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ : ﴿ فالنهي عن اتباع ما ليس بعلم قطعي مخصوص بالعقائد ﴾ .[٩٥]

وهنا أمر له أهميته أنه في حكم اليقين في العقيدة الظن الغالب الذي لا يخطر معه إحتمال النقيض على البال فإنه يقبل في العقيدة دون سواه .

ولا بد أن نفرق هنا بين كون الظن يحتمل النقيض في ذاته ، وبين كون هذا الإحتمال لا يخطر بالبال ، فالأول أمر عقلي بحت ، والثاني أمر قلبي وجداني .

فالظن في نظر العقل المجرد يحتمل النقيض ، وإلا لما كان ظناً .

أما كون هذا الإحتمال لا يخطر بالبال فمعناه أن القلب يرفض هذا الإحتمال شعورياً أولا شعورياً ، فيكرهه ولا يرضاه ، ولذا لا يخطر له ، ولو خطر له لا عرض عنه وأباه واستنكره ، ولا غرابة في هذا ، فإن الإنسان يستطيع أن يرفض اليقين ذاته وصدق الله إذ يقول : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلواً ﴾[٩٦] .

جاء في تفسير الطبري[٩٧] : « وأيقنتها قلوبهم ، وعلموا يقيناً أنها من عند الله فعاندوا بعد تبينهم الحق ، ومعرفتهم به » .

ومن المشهور أن النبي ﷺ كان يقبل إيمان العامة ولا يطالبهم بالدليل ، لعدم

---

(٩٢) الأنعام : ١١٦.

(٩٣) تفسير الألوسي ٨ / ١١.

(٩٤) الإسراء : ٣٦.

(٩٥) تفسير الألوسي ١٥ / ٧٣.

(٩٦) النمل : ١٤.

(٩٧) تفسير الطبري ١٩ / ١٤٠.

قدرتهم على العلم الذي يقوم على البراهين القطعية ، وعدم قدرتهم على المعاني الدقيقة المحررة ، ولذا عرف لهم الإيمان ـ مثلاً ـ بمتعلقاته لا بحقيقته فقال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »[٩٨] .

وقبول هذا النوع من الظن في الإيمان رحمة من الله بعامة الناس وضعفائهم « ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها »[٩٩] ، وإلا ضاق الأمر ، ولم يقبل إلا إيمان القلة القليلة ، وطرد سواد الناس من حظيرة الإيمان والرحمة الإلهية .

وقد لاحظ ذلك المحققون المتخصصون في شئون العقيدة ، وصرحوا به ، قال الشيخ صالح شرف نقلاً عنهم :[١٠٠] « المطلوب من العوام هو الظن الذي لا يخطر معه إحتمال النقيض على بالهم ، وذلك كاف في إيمانهم . »

وقد قرر هذا الإمام الغزالي في حديثه عن مقامات التصديق[١٠١] فقال : « الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ، ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ، ولكن ليس ذلك معرفة محققه ، إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز ، إتسعت نفسه للتجويز وهذا يسمى إعتقاداً مقارباً لليقين ، وهو إعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع » اهـ .

وإنما تطرقت إلى هذه المسألة ، حتى لا أترك الكلام على إطلاقه في هذا الموضوع الخطير ، فيأتي من يكفر العامة بغير حق ، ويحجر ما وسعه الله .

---

(٩٨) صحيح مسلم ١ / ٢٢ ط عيسى البابي الحلبي .

(٩٩) البقرة : ٢٨٦ .

(١٠٠) مذكرات في التوحيد لكلية أصول الدين (السنة النهائية) للشيخ صالح موسى شرف الأستاذ بالكلية ص ١٨٤ .

(١٠١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١ / ١٢٣ .

الإعتماد على الظن ومجاله :

الظن هو إدراك الطرف الراجح يقول السيد الشريف[١٠٢] : « هو الإعتقاد الراجح مع إحتمال النقيض »[١٠٣] . ومن المعروف أن اليقين عزيز ، والقادرون عليه قله ، فماذا يفعل المرء إذا لم يستطع الوصول إليه ؟ هل يقعد ويعطل مصالحه أم يلجأ إلى الظن ليصرف شئونه ؟

إن إلزام المرء بالإقتصار على العلم القطعي في كل شئون الحياة بحيث إذا لم يظفر به ، كان عليه أن يقف جامداً في مكانه ، لا يتحرك خطوة نحو تحقيق ما يبتغي ، إن هذا الإلزام غير مشروع ولا معقول ، لأنه فوق طاقة الإنسان ولا يستقيم عليه أمر دينه ، ولا دنياه ، لذا كان من الضروري أن يلجأ إلى الظن ليدبر أموره ، فليس أمامه إلا هذا ، ولا يصلح أمره إلا عليه .

وإنما يلجأ إليه إذا عجز عن اليقين ، وتوقف عليه صلاح شأنه ، ولم يكن فيه أضرار بالنفس ، ولا ظلم للغير ، ولم يمنع منه مانع شرعي .

ومن هنا أجرى القرآن هذا الظن مجرى العلم ، وسماه علمًا ، لا لأنه علم حقيقي ، بل لأنه يقوم مقام العلم ، ولأنه قصارى جهد البشر في طلب الحق .

جاء بالكشاف في قوله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾[١٠٤] : « وقد استدل به مبطل الأجتهاد ، ولم يصح ، لأن ذلك من العلم ، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به » .

وجاء في حاشية الشهاب تعليقاً على تفسير البيضاوي لنفس الآية[١٠٥] : « وقيل أن

(١٠٢) التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ص ٧٧ ط الدار التونسية .

(١٠٣) ويفرق بينه وبين الشك بأن الشك : إدراك الطرفين على السواء يقول السيد الشريف : « الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الأخر عند الشاك ، وقيل الشك ما استوى طرفاه ، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الأخر فهو ظن ، فإذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين » ـ التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ص ٦٨ ـ طبعه الدار التونسية .

(١٠٤) الكشاف للزمخشري ٢ / ٤٤٩ .

(١٠٥) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٦ / ٣١

الشرع أجرى الظن ، وإن لم يكن علمًا ، مجرى العلم ، وأمرنا بالعمل به ، للإجماع على وجوب العمل بالشهادة ، والإجتهاد في القبلة ، وغير ذلك مما لا يحصى من الأحكام الفرعية » .

ومن الأدلة الصريحة على ذلك قوله تعالى بشأن الرقيق : ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾(١٠٦) ، وقد فسر الألوسي العلم بالظن القوي فقال(١٠٧) : « المراد من العلم الظن القوي ، وهو مدار أكثر الأحكام الشرعية » .

ومحل التعويل على الظن القوي في غير ما تقدم بيانه من الأخبار والشهادات والعقائد وما يمكن الوصول فيه إلى علم جازم ، وبهذا يعلم أن مجال إستعماله فسيح بعيد المدى يتناول كثيراً من أعمال المرء وشئونه الدينية والدنيوية إن لم يكن أكثرها ، فيشمل ما يلي :

أولا : الأمور الشرعيه الإجتهادية ، سواء كان المجتهد عالماً تتوفر فيه شروط الإجتهاد أو نوع منه ، أو كان شخصاً عادياً يتعلق إجتهاده بالتطبيقات الفعلية ، كتحري القبلة ، ودخول وقت الصلاة . . . حيث لا توجد وسيلة للتحديد ، وكل هذا أمر واضح ومشهور ، وقد تضمنه ما تقدم من كلام المفسرين والألوسي الذي قال أنفا أن « الظن مدار أكثر الأحكام الشرعية » ، بل نستطيع أن نقول أن كثيراً من الأعمال الشرعية أحكامها ظنية ، وقبولها عند الله ظني كذلك ، وعلى هذا الأساس نقوم بها رغباً ورهباً ، وبهذا أمرنا .

ثانيا : تخطيط الشخص وتدبيره لمستقبل حياته وحياة أسرته وأولاده ، فضلاً عن التخطيط العام لأمة من الناس ، ذلك أن أمر المستقبل بيد الله وحده ، وليس للإنسان منه شيء فلو عزم على أمر لينفذه ولو في اللحظة التالية ، فإنه لا يملك بقاء حياته ، ولا قدرته ولا الظروف المواتية ، ولا النتيجة المرجوة ، وذلك شاهد على وحدانيته تعالى ، وتفرده بالخلق والأمر .

---

(١٠٦) النور : ٣٣

(١٠٧) تفسير الألوسي : ١٨ / ١٥٥ .

أضف إلى أن الإنسان لا يملك المستقبل أنه لا يعلمه ، وهو بالنسبة إليه غيب ، مستور لا سبيل إلى معرفته ، وإنما علمه عند الله ، قال تعالى ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾[١٠٨] .

جاء في السراج المنير[١٠٩] : ﴿ وما تدري نفس ﴾ من الأنفس البشرية وغيرها ﴿ ماذا تكسب غداً ﴾ أي من خير أو شر ، وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه ، ، ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت ، ويعلمه الله تعالى .

وفي الحكمة :

إنما الغيب كتاب صانه .. عن عيون الناس رب العالمين

ليس يبدو منه للناس سوى .. صفحة الحاضر حيناً بعد حين

ولذا شرع للمؤمن إذا عزم على فعل شيء في المستقبل أن يذكر هيمنة سلطان الله وأن يتوكل عليه ، قال تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيء أني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾[١١٠] ﴿ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه ﴾[١١١] . ولهذا الجانب أمثلة كثيرة كالتجارة طلباً للربح والزراعة رجاء الثمرة ، والتداوي للشفاء ، والتعلم لبلوغ مستوى أفضل وتربية الأولاد طمعاً في فلاحهم وبرهم ، وإرشاد الناس أملاً في صلاحهم وهكذا .

قال الألوسي في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾[١١٢] : « أحتج بالآية نفاة القياس ، لأنه قفو للظن وحكم به ، وأجيب بأنهم أجمعوا على الحكم بالظن والعمل به في صور كثيرة ، فمن ذلك الصلاة على الميت ، ودفنه في مقابر المسلمين ، وتوريث المسلم منه ، بناء على أنه مسلم ، وهو مظنون والتوجه إلى

---

(١٠٨) لقمان : ٣٤

(١٠٩) تفسير السراج المنير للخطيب الشربيني ٣ / ١٩٩ .

(١١٠) الكهف : ٢٣ ، ٢٤

(١١١) هود : ١٢٣ .

(١١٢) تفسير الألوسي ١٥ / ٧٣ .

القبلة في الصلاة وهو مبني على الإجتهاد بأمارات لا تفيد إلا الظن وأكل الذبيحة بناء على أنها ذبيحة مسلم وهو مظنون ، والشهادة فإنها ظنية[١١٣] ، وقيم المتلفات ، وأروش الجنايات ، فإنها لا سبيل إليها إلا الظن ، ومن نظر ولو بمؤخر العين رأى أن جميع الأعمال المعتبرة في الدنيا من الأسفار وطلب الأرباح ، والمعاملات إلى الآجال المخصوصة والإعتماد على صداقة الأصدقاء ، وعداوة الأعداء كلها مظنونة »[١١٤] اهـ .

ثالثا : البحث العلمي في الماديات ، فإنه يبدأ عادة بالإفتراض والظن ولا يصل إلى اليقين أو القانون ، والحقيقة العلمية إلا في آخر المراحل وقد لا يصل ويظل الأمر من قبيل النظريات فترة تطول أو تقصر .

إن النتائج العلمية الخطيرة التي يرى الناس آثارها أو يسمعون بها إنما هي وليدة الظنون والإفتراضات .

وليس ذلك قاصراً على البحث العلمي المادي بل يتعداه إلى البحث العقلي والأدبي ومن المشهور أن الشك سبيل اليقين .

. . . .

ولعل من تمام الموضوع أن نقول أن الظن لا يحمد في جميع الأحوال فهناك جوانب لا ينبغي العمل فيها بالظن ، وذلك إذا كان في الأخذ به أضرار بالنفس ، أو ظلم للغير ، أو إفساد للعلاقة بين المسلمين كالتشاؤم والأوهام الضارة ، وسوء الظن بالمؤمنين ، وقد أرشد القرآن إلى ذلك ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين أمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾[١١٥] .

قال أبو السعود[١١٦] : « أي كونوا على جانب منه[١١٧] ، وإبهام « الكثير » لإ يجاب

---

(١١٣) معناه أن الشهادة تفيد الآخرين الظن وإن كان يجب على صاحبها أن يعتمد على اليقين .

(١١٤) كلام الألوسي هذا خلاصة لما قاله الفخر الرازي في التفسير الكبير ٢٠ / ٢٠٨

(١١٥) الحجرات : ١٢ .

(١١٦) تفسير أبي السعود : ٥ / ١٧٨ .

(١١٧) أي ابتعدوا عنه .

الاحتياط والتأمل في كل ظن حتى يعلم أنه من أي قبيل ، فإن من الظن ما يجب اتباعه كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله تعالى ، ومنه ما يحرم كالظن في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع ، وظن السوء بالمؤمنين ، ومنه ما يباح كالظن في الأمور المعاشية ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيقي و ﴿ الإثم ﴾ الذنب الذي يستحق العقوبة عليه » اهـ .

« الدين والعـــلم »

« وقانـون الوفـاق بينهمـــا »

لا غنى لأحدهما عن الأخر :

المراد بالدين علم الدين ، ومعلوم أن أصله ودستوره القرآن الكريم . والمراد بالعلم هنا العلم المتعلق بالماديات والمحسوسات ، والذي يقوم على الملاحظة والتجربة ، وهذا البحث وثيق الصلة بالقرآن وآياته الكونية كما سيأتي :

وحقيقة الصلة بين الدين والعلم بالمعنى المتقدم أن أحدهما لا يستغني عن الأخر ، فالعلم لا يستغني بحال عن الدين ، لأن الدين هو الذي يفسر له ما يعجز عنه من أمر هذا الكون ، ذلك أن العلم له مجال لا يتعداه هو المادة المحسة وبعد ذلك يقف حائراً ، فلا يعرف سر الوجود ولا غايته ، ولا مبداه ومصيره ، ولا مهمة الإنسان في الأرض وعلاقته بالكون ورب الكون ولا العوالم غير المنظورة ولا ماذا يكون بعد الموت وزوال هذا العالم لأن كل هذا لا يدخل في نطاق الملاحظة والتجربة ، الدين هو الذي يقفه على كل هذا . . . ، كما تقدم في أن الوحي هو المصدر الأكبر للعلم » ، كما أن الدين هو الذي يسدد العلم ، ويوجهه وجهة الخير والإصلاح ، وبدون هذا يصير العلم أداة فساد وتخريب كالسلاح في يد قاطع الطريق .

وكذا ينبغي أن يلاحظ أن الدين لا يستغني عن العلم ، لأنه وسيلته في غرس الإيمان ، وتدعيم اليقين ، إن حقائق العلم هي براهين الدين وحججه وبيناته ، قال

تعالى : ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾[١١٨]

يقول الدكتور دراز[١١٩] : « ولن يستغني الدين عن العلوم إلا لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها ، أو الدعاوي عن حججها وبيناتها ، فكما أن المجهول لا يتوصل إليه إلا عن طريق المعلوم ، والغائب لا يدرك إلا على ضرب من القياس على الشاهد ، كذلك الحقائق العليا لا يسهل الصعود إليها إلا على سلم من حقائق الدنيا » .

ويقرن الشيخ محمد عبده بين علم الدين وعلم الكون ، في حياة المسلمين فيقول[١٢٠] : « إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، ولما أصيبوا بمرض الجهل بدينهم ، انهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم » .

لا تعارض بين الدين والعلم :

نشأت فكرة التعارض بين الدين والعلم وراجت في العصور الوسطى وفي بيئة غير بيئتنا ، وفي مواجهة دين وعقائد غير ديننا وعقائدنا لأسباب تاريخية معروفة ، ثم نقلها إلينا وطبقها على الإسلام وكتابه ناس لا يعرفون شيئاً عن طبيعة الإسلام والقرآن .

والحق أن هذا زعم باطل ، ودعوى بلا دليل ، بل الدليل قائم على هدمها وإثبات نقيضها ، ذلك إنه لا يوجد اشتراك في الموضوع بينهما ، فالعلم المذكور موضوعه المادة ، والدين موضوعه هداية الإنسان ، وما وراء المادة ، فلكل منهما ميدان بعيد عن الأخر ، فلا مجال للاحتكاك فضلاً عن التصادم ، وفي هذا يقول الدكتور دراز[١٢١] : « ومهما يكن من أمر ، فالمعقول أنه أن لم يكن بين العلم والدين

---

(١١٨) يونس : ٦.

(١١٩) الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ص ٧٥.

(١٢٠) الإسلام بين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده ص ٢٠٣ ط دار الهلال.

(١٢١) الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ص ٧٥.

تعاون ، من قريب ولا من بعيد ، كان بينهما على الأقل من التفاهم وحسن التجاور ما بين فروع الصناعات المختلفة ، إذ ليس يعقل أن يكون هناك تعارض وتناقض بين أمرين لا اشتراك بينهما في موضوع واحد » .

ويقول الدكتور عبدالحليم محمود :(١٢٢) « على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم إنما هي مسألة وهمية ، إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر . وذلك أن العلم دائرته المادة والمحس ، أما الدين فدائرته (ما وراء الطبيعة) ، والخير والفضيلة فهما لا يلتقيان في الموضوع ، فكيف يتعارضان ؟ » .

نعم قد يتناول كل منهما شيئاً مما يدخل في دائرة الأخر ، فالقرآن ـ وهو دستور الدين ـ كثيراً ما يتحدث عن المخلوقات وظواهر الكون ، لتدعيم الإيمان والدعوة إلى الهدى والصراط المستقيم ، لا ليبحث خواصها وقوانينها فإنه ليس كتاب فيزياء ولا كيمياء مثلاً .

والعلم التجريبي قد يبحث شيئاً من موضوعات الدين والقرآن كبدء خلق الكون أو نشأة الإنسان ، أو ظاهرة كونية تحدث عنها القرآن مثلاً ، فهل يمكن التصادم بينهما في هذه الحالة ؟

والجواب : أن هذا غير ممكن ، وأن بدا شيء من ذلك لأول وهلة فلا بد أن يكون هناك خطأ أو افتيات فيما نسب إلى الدين ، أو فيما نسب إلى العلم ، فليس كل إفهام أهل الدين ديناً ، وليس كل آراء أهل العلم علمًا .

وإنما كان التعارض مستحيلاً ، لأن الدين والعلم ، إذا تناولا مسألة واحدة فإما أن يكون القولان يقينيين ، أو ظنيين ، أو قول الدين يقينياً ، وقول العلم ظنياً ، أو العكس . وفي جميع الحالات يستحيل التعارض بينهما . وهاك التفاصيل :

أولا : إذا كان قول الدين وقول العلم يقينيين ، فإنهما يتفقان حتمًا ولا يختلفان بحال من الأحوال كقوله تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج

(١٢٢) القرآن والنبي للدكتور عبدالحليم محمود ص ٢٤٥ .

من خلاله »[١٢٣] فما صرحت به الآية من عمليات تكوين السحاب ونزول المطر منه حقيقة مقطوع بها في كل من الدين والعلم ، ومن هنا اتفقاً وتطابقاً ، فإن اليقين لا يعارض اليقين والحق لا ينقض الحق ، ولا يتصور أن يتناقض صحيح المنقول ، وصريح المعقول وذلك لأن خالق الكون هو منزل الكتاب فإذا أخبر عن الكائنات ، فإنما يخبر عن خلقه وصنعته ، وهو العليم بأسرارها « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[١٢٤] « ومن أصدق من الله حديثاً »[١٢٥]

وللشيخ الغزالي في هذا كلام جيد ، قال[١٢٦] : « أحياناً أجد مع الجهاز الذي إشتريه كتيباً يصف طريقة استخدامه ، وصيانته ، ويشرح لي أنواع القوى والمفاتيح التي تعينني على الانتفاع بهذا الجهاز على خير وجه ، إنني لا أشك في أن الذي أشرف على كتابة هذه السطور ، هو الذي أشرف على صنع الجهاز نفسه .

هذا الشعور يتملكني وأنا أقرأ القرآن الكريم ، وأستمع إلى حديثه عن الأرض والسماء وما بينهما ، إنني أستيقن أن صانع هذا العالم هو منزل ذلك الوحي .

إن القرابة قائمة بين الحياة وبين الكتاب الذي يوجهها ، ويشرف على مبتداها ومنتهاها ، نعم ربهما واحد ، الذي خلق هو الذي قال » اهـ .

ثانيا : إذا كان قول الدين يقينياً (أي قطعي الثبوت والدلالة) ، وقول العلم ظنياً ، فإنها لا يتعارضان ، فإن الحق أحق أن يتبع ، وهذا يقتضي أن

---

(١٢٣) الروم : ٤٨ « كسفاً » أي قطعاً ، الواحدة كسفة وكسفاً بتسكين السين غريب القرآن للسجستاني ص ١٦٩ ، « الودق » : المطر ـ المرجع نفسه ص ٢١٠

(١٢٤) الملك : ١٤.

(١٢٥) النساء : ٨٧.

(١٢٦) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين للشيخ محمد الغزالي ص ٢١٩ .

نأخذ بيقين الدين ، ونحكمه في ظني البشر ، ونجعله معياراً له فإن كان موافقاً قبلناه ، وإن كان مخالفاً أهملناه ورفضناه .

وذلك كما في أصل الإنسان ونشأته ، فقد جاءنا القرآن في هذا بالحق المبين فأخبرنا في آيات كثيرة أن الناس لأدم ، وأدم من تراب ، وأن الله تعالى قد خلقه بشراً سوياً من أول الأمر ، قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين[١٢٧] » « الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »[١٢٨]

أما العلم فقد أتى في هذا بظنون وأوهام لا تغني من الحق شيئاً مثل نظرية (دارون)[١٢٩] . وهنا يجب أن نقف عند حدود الحق الذي أنزله الخالق عز وجل ونطرح تلك النظريات والدعاوي التي لم يقم عليها دليل .

ثالثا : إذا كان النص الشرعي ظنياً ، وجاء العلم في موضوعه بالخبر اليقين فهنا يتعين قبول الحقيقة العلمية ، وتأويل النص الشرعي بما يوافقها .

كما في كروية الأرض ، فإن بعض آيات القرآن ـ مع كونها قطعية الثبوت ـ تتضمن الإشارة إليها ، والدلالة عليها على وجه الاحتمال مثل قوله تعالى : ﴿ يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ﴾[١٣٠] .

جاء في لسان العرب[١٣١] : « الكور لوث العمامة ، يعني إدارتها على الرأس ، وقد كورتها تكويراً » . وجاء في المصباح[٦] : « كورت الشيء إذا

(١٢٧) سورة ص : ٧١، ٧٢.

(١٢٨) السجدة : ٧ ، ٨.

(١٢٩) يدعى دارون أن الإنسان تطور من سلالات حيوانية سبقته كانت القرود أخرها ـ حقيقة الإنسان للدكتور / عيسى عبده وأحمد إسماعيل يحي ١ / ٥٤.

(١٣٠) الزمر : ٥.

(١٣١) لسان العرب لابن منظور ٣ / ٣١٢ ط دار لسان العرب.

(١٣٢) المصباح المنير للفيومي ٢ / ٥٤٣.

لففته على جهة الإستدارة » .

وبهذا المعنى اللغوي يمكن أن تفيد الآية أن جسم الأرض الذي يسقط عليه ضوء النهار وظلام الليل كروي .

أما العلم فقد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك كروية الأرض ، لذا يلزم قبول الحقيقة التي أثبتها العلم ، ثم تأول الآيات الواردة في الموضوع بما يوافقها ، فتفسر الآية السابقة بما يعطي ظاهر لفظها وتؤول الآيات التي تفيد أن الأرض منبسطة بأنها تصف المشهد المرئي من الأرض .

رابعا : إذا تعارض ظني في الدين ، وظني في العلم ، قدمنا ظني الشرع حتى يثبت العلمي أو ينهار ، وفي هذا يقول الشيخ الغزالي[١٣٣] : « المهم هو أن نعرف موقفنا إذا تعارض نظري في الدين ، مع نظري في العلم ، أعني إذا تعارض ظني هنا وهناك .

والجواب : أن ولاءنا لما لدينا من كتاب وسنة يقتضي أن نرجح ما عندنا حتى يبت الزمن في النظرية العلمية ، فإما ثبت بطلانها ، وإما تحولت إلى حقيقة راسخة ، وعندئذ قدمناها على الظني الذي لدينا ، ولا حرج بتة من هذا التقديم . » .

هذه خلاصة قانون الوفاق بين الدين والعلم ، كما يهدي إليه النظر ، وكما يفهم من كلام المحققين ، وبالله التوفيق .

---

(١٣٣) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين للشيخ محمد الغزالي ص ٢٢٤ ـ بتصرف.